الشيخ الإمام محمد بن بن عمر الهواري
* دفين وهران *

الأستاذ محمد بن معمر

معهد الحضارة الإسلامية وهران

عصر الهواري :

عاش الإمام الهواري ما بين 750 - 843 هـ /1350 - 1439م أي النصف الثاني من القرن 8 هـ /14م والنصف الأول من القرن 9 هـ 15م، وهي فترة اضطراب وتدهور سياسيين في تاريخ المغرب الإسلامي الذي كانت تتقاسم فيه النفوذ ثلاث دول رئيسية هي :

الدولة المرينية بالمغرب الأقصى (المغرب)

الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط (الجزائر)

الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (تونس)

وبقدر ما عرفت هذه الدول ازدهارا كبيرا في أول عهدها بقدر ما أخذ هذا الازدهار يذبل شيئا فشيئا فيما بعد، حيث سقطت كلها في وهدة الانقسامات

والحروب الداخلية، فكل أسرة من الأسر المذكورة (المرينية، الزيانية، الحفصية) دخلت في تطاحن عائلي مرير وطويل، وعرفت خصومة داخلية مستمرة على الملك والصولة، مما جر عليها الكثير من المحن و البلايا.

هذا فضلا عن تلك الحروب الهوجاء التي كانت بين هذه الدول الإسلامية الثلاث، فتارة تقود الحفصيين إلى فاس، وتقود تارة أخرى المرينيين إلى تونس، ودولة بني زيان بين شقي الرحى، تنتمي مرة لهؤلاء ومرة أخرى لأولئك وتعلن وجوب التخلص منهما معا وانقضى القرن 15 بأكمله في مد وجزر واستقلت جهات عديدة بنفسها في بلاد المغرب العربي مؤلفة إمارات وطوائف.

ولم يقتصر الأمر على التطاحن العائلي والنزاع الإقليمي بل أخذ الصراع طابعه الدولي، فالوضع السياسي المتمزق والمتأزم هو الذي جلب الى المغرب العربي الأطماع الأجنبية فوقعت ثغوره تحت الاحتلال البرتغالي والإسباني وأصبحت المدن الأخرى مهددة بالاحتلال.

ولعل الدارس لكتاب تاريخ الدولتين للزركشي، وكتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفد القسنطيني، وكتاب العدواني، وكتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ورسالة الثعالبي في الجهاد وغيرها من المصادر التاريخية، يقف بوضوح على مدى تدهور الأوضاع السياسية لبلاد المغرب العربي خلال هذه الفترة التاريخية.

وقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية بعض الآثار السلبية على الحياة الثقافية، إذ أن بعض العلماء قد هاجروا إلى المشرق، ولجأ بعضهم إلى خدمة الأمراء، في حين فضل بعضهم الانزواء مفضلا الهروب من أدران الحياة .

ولكن هذا لا يعني أبدا أن الحياة الثقافية قد ارتسمت هي الأخرى بتلك الصورة

القائمة التي عرفتها الحياة السياسية، بل إن القرن 9 هـ كان عهد إنتاج ثقافي وفير، و المدن كانت تشع بمدارسها ومساجدها، ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا.

ومن هذه المدن بالقطر الجزائري، نذكر: تلمسان، وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة، وغيرها، ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد و التصوف .

فبتلمسان عائلة المقري والعقباني، وبقسنطينة عائلة إبن باديس والقنفد، وببجاية عائلة المنجلاتي والمشدالي، وبالجزائر عائلة ابن السكات وعالمها وزاهدها عبد الرحمن الثعالبي، وعرفت مازونة عددا من الفقهاء كموسى بن عيسى، وإبنه يحي صاحب الدرر المكنونة. أما وهران فقد اشتهرت بالعالمين المتصوفين الإمام الهواري وتلميذه إبراهيم التازي وكانت كل مدينة من هذه المدن تحتوي على عدد كبير من المساجد والمدارس والمؤسسات العامة والخاصة والزوايا، وكان التعليم بجميع مستوياته منتشرا بها.

ومن أهم سمات القرن 9هـ /15م في الجزائر، ظهور عقيدة المرابط وانتشار الزوايا، وافتتاح عهد التصوف العملي، وذلك بسبب ضعف الدولة أمام الانحلال الداخلي والخطر الخارجي. حقيقة أن التصوف وخاصة الدعوة الغزالية قد وجدت أرضا خصبة بالمغرب الإسلامي قبل ذلك، لكن المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وابتداع الحضرة والأوراد وغيرها و الالتفاف حول زاوية ذلك الشيخ أو ضريحه، هي أمور عرفها القرن 9 هـ وما بعده، ثم جاء العهد العثماني ليزيدها حماية وتعهدا، وتزداد هي بدورها في ظله ازدهارا و تفريعا.

حياة الإمام الهواري

* المولد و النسب :

أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري، ولد الإمام الهواري سنة 751هـ /1350م بمغراوة وتربى بهوارة، لذلك عرف بالمغراوي أو الهواري إلا أن الثانية هي الأكثر .

أما عن نسبه، ففي الوقت الذي اكتفى فيه صاحب البستان وصاحب تعريف الخلف، وصاحب شجرة النور الزكية بذكر اسمه واسم والده، ونسبته وكنيته نجد صاحب دليل الحيران وأنيس السهران محمد بن يوسف الزياني، ونقلا عن صاحب جواهر الأسرار في معرفة آل النبـــي المختار، يورد للإمام الهواري نسبا مطولا انتهى به إلى الإمام علي رضي الله عنه، وفي ذلك يقول : عالم وهران وعاملها الشريف الحسني بغير شقاق سيدي محمد بن عمر بن عثمان بن عياشة ابن عكاشة بن سيد الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار ابن أبى عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن موسى بن عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن النسب العلوي الذي أورده صاحب دليل الحيران للإمام الهواري قضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص أي أنها أمر مهم بالنسبة للهواري، فكيف سكت عنها جميع من ترجم له خاصة التنبكتي صاحب نيل الابتهاج وابن مريم صاحب البستان، والمتتبع للقائمة المذكورة يجد أن الحسن بن علي قد ولد محمد ا ومن عقب هذا الأخير موسى، غير ان الدارس لكتاب جمهرة العرب لابن حزم الأندلسي يجد غير ذلك، فهو يورد قائمة لأبناء الحسن بن علي ومنهم الحسن

وفيه العدد والبيت كما يقول، وزيد بن الحسن وله عقب كثير، وعمرو وكان له ولد انقرض عقبه، أما الحسين والقاسم وأبو بكر وطلحة وعبد الرحمن وعبد الله وجعفر وحمزة ومحمد (الذي ينسب إليه صاحب دليل الحيران ابنا اسمه موسى) فلا عقب لواحد من هؤلاء حسب ابن حزم (ص39).

إن قضية النسب العلوي واحدة من أعقد القضايا التي اختلف حولها المؤرخون والنسابون كنسب الفاطميين مثلا والمهدى بن تومرت وغيرها، فمن غير المستبعد إذن ان يكون هذا النسب موضوعا بالنسبة للإمام الهواري حتى تكتمل مكانته العلمية وشهرته الصوفية بشرف النسب.

شيوخه وتلاميذته :

أخذ الإمام الهواري عن أقطاب عصره وتلقى علومه في كبريات المدارس آنذاك، وكانت مدرسة بجاية أول محطة في رحلته العلمية حيث أخذ عن إمامها وكبير علمائها في وقته العلامة الزاهد أحمد بن إدريس البجائي المتوفي عام 760هـ/1359م وتلميذه من بعده الفقيه الصالح عبد الرحمن الوغليسي عالم بجاية ومفتيها المتوفي سنة 786هـ/1384م وكانت هذه المدرسة إلى جانب دورها العلمي والثقافي مدرسة صوفية من أهم وأشهر مدارس الجزائر الصوفية.

ثم سافر إلى فاس وأخذ عن الفقيه المالكي مفتي فاس موسى بن محمد بن معطي العبدوسي المتوفى عام 776 هـ / 1374م، وأخذ عن الإمام الفقيه أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي المعروف بالقباب أحد صدور أهل فاس وصاحب الفتيا بها له، نوازل مشهورة توفي عام 779هـ ـ 1377م .

إننا لا نملك تاريخا محددا لدخول الإمام الهواري مدينة فاس ولا لخروجه منها غير أن تاريخ وفاة كل من العبدوسي والقباب يجعلنا نقدر تلك الفترة بالعقد

الثالث من عمر الإمام أي بين العشرين والثلاثين وهي الفترة التي سافر فيها من فاس متجها الى المشرق لأداء فريضة الحج، حيث مر في طريقه بمصر وأخذ عن شيوخها وعلى رأسهم الشيخ ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم الحافظ العراقي شيخ المحدثين المتوفى سنة 826 هـ.

وجاور مدة بالحرم الشريف بين مكة والمدينة ثم سافر للقدس لرؤية بيت المقدس والصلاة بها وجال في بلاد الشام حيث كان يأوي في جامع بني أمية.

وبعد هذه الرحلة الطويلة التي قادته من بجاية الى فاس ثم القاهرة فالحرم الشريف مرورا بالقدس والإقامة في بلاد الشام، رجع الإمام الهواري إلى وهران التي استقر بها نهائيا إلى أن وافاه الأجل بها سنة 843هـ. حيث أقام بها مثابرا على العلم والعمل والصدق في الأحوال، وانتفع به من اجتمع به من طلبة العلم وعلى رأسهم تلميذه الوفي الإمام إبراهيم التازي (موضوع مداخلة أخرى).

آثار الهواري:

كان إنتاج الجزائريين خلال القرن 9 هـ / 15 م في ميدان التاريخ والشعر والأدب الصرف قليلا بينما كان إنتاجهم الروحي أغزر مادة وأقوى تعبيرا. حيث امتد تيار المدرسة الوغليسية ببجاية ومدرسة حسن بن باديس بقسنطينة ليشمل القطر الجزائري كله فكان في مدينة وهران محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي، وفي مدينة الجزائر عبد الرحمن الثعالبي وتلميذه أحمد الجزائري، وفي تلمسان محمد السنوسي، وفي ندرومة يوسف الندرومي، وفي بسكرة عيسى بن سلامة البسكري.

غير أن آثار الإمام الهواري تعد ضئيلة في ميدان الانتاج الصوفي والعقائدي

مقارنة بأقطاب عصره من المتصوفة أمثال عبد الرحمن الثعالبي ومحمد السنوسي وغيرهما من مشاهير الصوفية، فقد ألف التسهيل، وتبصرة السائل والتبيان.

أما المؤلف الذي نال شهرة في الأوساط الصوفية واعتنى به أتباعه وتلاميذه وتداولوه بالدرس هو كتاب السهو والتنبيه وهو عبارة عن منظومة غير معربة ولا قائمة الأوزان، لأن الفقيه أبا زيد عبد الرحمن المغراوي المقلاشي أخذ كتاب السهو قبل أن يضيف إليه الهواري التنبيه وحاول أن يصلحه بوزن أشياء وإعراب أخرى وجاء به بعد أن أصلحه إلى الإمام الهواري وقال له قد أصلحت سهوك يا سيدي فأجابه الهـواري قائلا : هذا سهو المقلاشي أما سهوي فهو سهو الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعني ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري؟ بل سهوي يبقى على ما هو عليه.

ولعل الإمام الهواري سار في ذلك سيرة بعض النساك وشيوخ الصوفية الذين قال أحدهم : لحنا بلساننا وأعربنا بجناننا ليس حقيقة الرفع والنصب والخفض والجزم أن ترفع الكلمة و تنصبها وتخفضها وتجزمها وإنما حقيقة الرفع أن ترفع لربك جميع الأعمال الصالحات وحقيقة النصب أن تنصب بين عينك ميزان القصاص ... إلى آخر ما قاله ابن الجوزي في بحر الدموع، ثم إن الإمام الهواري قد راعى ما كان سائدا في القرن 9 هـ .

فالشعر قد طغت عليه روح التصوف وأصبح نظما لا وحي فيه ولا خيال وكانت المنظومة تتناول موضوعا دينيا أوصوفيا أو رثاء متصوف أو زاهد وما شاكل ذلك.

وكان الشيخ أبو الحسن التالوتي كثير المطالعة لكتاب السهو والتنبيه وكان إبراهيم التازي تلميذ الهواري يختم كتاب السهو كل يوم تبركا.

الإمام الهواري و التصوف :

إن أهم ما ميز فترة القرن 9هـ/14م هو ازدهار التصوف وذيوعه في سائر الأنحاء، فالحركة الصوفية قد قطعت أشواطا بعيدة منذ عهد الموحدين وأحرزت تقدما ملحوظا، ولكن الأوساط العلمية كانت في أغلب الأحيان لا تزال متمسكة بموقف معتدل في الصراع الحاد القائم منذ قرون بين أنصار العقلانية من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم وبين أعدائهم من الصوفية بصفة خاصة، وكان العلماء المعتدلين ينتمون غالبا إلى فريق السلفية المناهض للبدع.

وفي القرن 9 هـ تغير الوضع بصفة ملحوظة إذ تمكن التصوف من التوغل في جميع الأوساط وحتى بين العلماء والفقهاء وانتشر الرقص والسماع مما جعل التصوف المعتدل الذي غذته مؤلفات الغزالي وخاصة كتاب الإحياء يتحول إلى نشاط اجتماعي تنظمه عدة طرق أشهرها الطريقة الشاذلية وما تفرع عنها من فرق في سائر أنحاء المغرب، وإلى انفعالات وأعمال جماعية يلعب فيها شيخ الطريقة دورا أساسيا. وقد أعلن العلماء من فريق السلفية استنكارهم للبدع التي أدخلت على حركة التصوف كابن مرزوق الحفيد وابن زكري حيث قام صراع عقائدي ومناظرات بين فريق السلفية وخصمه فريق المتصوفة.

واشتهر في ق 9 كثير من الأولياء الزهاد والصلحاء المتبتلين أمثال إبراهيم المصمودي ومحمد بن عمر الهواري وإبراهيم التازي وأحمد بن الحسن الغماري، والحسن أبركان وأحمد البرنسي وغيرهم، ولكن الذي يهمنا من هؤلاء هو الإمام محمد بن عمر الهواري موضوع هذه المداخلة.

إن زهد وصوفية الإمام الهواري أجمع عليها كل الذين ترجموا لحياته كابن صعد التلمساني والتنبكتي وابن مريم والزياني والحفناوي ومحمد مخلوف، فقد وصفوه بالشيخ الصالح الولي الكامل العارف بالله القطب الواصل العالم العامل

الكثير الكرامات . والحقيقة أن الإمام الهواري لم يكن سوى انتاج العصر الذي عاش فيه . فأول مدرسة تلقى فيها علومه الاولي هي مدرسة بجاية لقربها وشهرة علمائها في الدين والتصوف وخاصة مدرسة عبد الرحمن الوغليسي أي أن الإمام الهواري قد رضع ألبان الصوفية واحتك برجال التصوف وأخذ عنهم منذ نشأته مما حدد مساره العلمي والصوفي منذ البداية.

وقصد بعد ذلك فاس حاضرة المرينيين وحاضرة علماء جامع القرويين أمثال العبدوسي والقباب للتزود بالفقه المالكي ثم زار مصر والحجاز والقدس والشام، كما هي عادة الحجاج العلماء في وقته ليستقر في آخر المطاف بوهران كعالم زاهد وصوفي قطب حيث اشتهرت به واشتهر بها.

أما الطريقة الصوفية التي اتبعها الإمام الهواري فهي الطريقة الشاذلية نسبة الى ابي الحسن الشاذلي 656 هـ ، الذي تأثر بتعاليم عبد السلام بن مشيش 626 هـ ، تلميذ أبي مدين شعيب دفين تلمسان . وقد كان لتعاليم أبي الحسن الشاذلي أثر كبير في الجزائر فمعظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن 8 هـ تتصل بطريقة أو بأخرى بتعاليم الشاذلية، وقد أحصى بعضهم عدد الطرق الصوفية في المغرب العربي أواخر القرن 13 هـ، فوجد 13 طريقة من مجموع 16 شاذلية الأصل. لذلك فالجزائر من الناحية الصوفية في القرن 9 هـ كانت تحت نفوذ الطريقتين الشاذلية والقادرية، وكذلك يمكننا اعتبار الإمام الهواري وغيره من أقطاب الصوفية كواضح بن عاصم المكناسي وإبراهيم التازي ومحمد السنوسي والثعالبي وأحمد المليانى من أتباع الطريقة الشاذلية وجميعهم قد أثروا على معاصريهم وتركوا تلاميذ وأتباعا وأسس بعضهم زوايا ظلت الى اليوم.

ويمكن تقسيم علماء الصوفية في هذه الفترة إلى ثلاث طبقات، فمنهم العلماء العاملون ومنهم المتوسطون في العلم ومنهم الخاملون الذين لا تعرف إلا أسماؤهم .

ومن القسم الأول عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي، نظرا لكتبهما الغزيرة الفائدة واطلاعهما الواسع على أحوال العصر وتصدرهما للتدريس، هذا فضلا عن كونهما أقرب إلى الفقهاء منهم الى المتصوفة.

ويأتي في القسم الثاني الإمام محمد الهواري وأحمد المليانى وإبراهيم التازي، فقد نظم الهواري عددا من المسائل الفقهية وغيرها، وكان واسع الإطلاع أخذ العلم في بجاية وفاس ومصر والحرمين والقدس ودمشق، وعاد لنشره في بلاده، حيث اتخذ زاويته بوهران مقرا لذلك . وكان تلميذه إبراهيم التازي شاعرا أيضا وهو الذي ورث عن شيخه العلم وإدارة الزاوية.

أما القسم الثالث فيشمل الخاملين الذين اشتهروا بالاسم فقط أمثال محمد واضح دفين الشلف ومحمد التواتي دفين بجاية وغيرهما من المرابطين المغمورين الذين ذكرهم الأدب الشعبي ونسج حولهم بعض الأساطير.

اذا كان هذا التقسيم قد روعي فيه المستوى العلمي فثمة تصنيف آخر يتعلق بسلوك رجال التصوف، فهناك صنفان:

أ ـ صنف العلماء الذين غلب عليهم التصوف وهم في الغالب لا يميلون إلى و الوظيفة والى التقرب من السلطة إلا إذ أجبروا على ذلك بوجه من الوجوه.

ب ـ صنف يضم المتصوفة الذين يدعون العلم أو المنتسبين إلى التصوف والولاية لغرض من الأغراض والذين ساعدتهم الظروف السياسية والاقتصادية على الظهور واستغلال العامة.

إن كل التعاريف المقبولة والمعقولة ترى أن التصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط أساسية في مقدمتها معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة والعمل بهما والجمع بين العلم والعمل والسعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق

التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته إضافة إلى التقى والورع والتجرد عن هوى النفس وحب الدنيا، والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة وعدم التعاون مع الظلمة والمتجبرين. وهي شروط ليس من السهل توفرها في خلق الله، غير أن الشواهد كثيرة على وجود من توفرت فيه أو كادت، وهم الصنف الأول من رجال التصوف المشار إليهم، ولعل سيرة الإمام الهواري وعبد الرحمن الثعالبي ومحمد السنوسي وعبد الرحمن الاخضري وعمر الوزان وأمثالهم خير شاهد على ذلك، فقد أضافوا الى العلم الزهد والتصوف والتجرد عن الهوى.

أما الصنف الثاني فيضم دجاجلة الدين وممن انتسبوا إلى التصوف ظلما وعدوانا لانحرافهم عن الطريق الحقيقي للتصوف والتحول من العلم الى إلخرافة ومن الولاية الى الشعوذة وتبنيهم دعوات ضالة مضرة بالمصلحة العامة، مما تولد عن ذلك انتشار الفوضى الدينية وكثرة الخرافات وحلول السحر محل العلم. وإن كان هذا الصنف محدود العدد والتأثير خلال القرن 9 هـ إلا أنه في القرون التالية قد انتشرت عناصره بشكل كبير مستغلة الأوضاع السياسية والاقتصادية في ظل الوجود العثماني الذي بالغ في تشجيع التصوف وأخذت تتسرب إلى حياة أقطاب التصوف الحقيقيين كالإمام الهواري والثعالبي والسنوسي وغيرهم بعض الكرامات والخوارق التي نسبها إليهم الأتباع وهي ليست من الحقيقة في شيء، واعتقدوا فيهم المعتقدات غير الصحيحة التي كانوا لا يقرونها لو كانوا أحياء.

وقد نسبت إلى الإمام الهواري كرامات في منتهى الغرابة، ومن ذلك ما رواه صاحب دليل الحيران أن أهل وهران قتلوا أحمد الهائج ابن الإمام الهواري ظلما فكان رد فعله كما يقول صاحب دليل الحيران أنه سلم وهران للنصارى لأنه سلطان مصيرها ومتول أمرها، وكان من الذين لو أقسموا على الله لبر الله قسمهم ونص

دعائه «روحي يا وهران الفاسقة، يا كثيرة الجور والبغي والطارقة يا ذات الأهل الباغية السارقة إني بعتك بيعة موافقة لنصارى مالقة وجالقة إلي يوم البعث والتآلقة مهما ترجعي فأنت طالقة». فقال له أحد الحضور يا سيدي والفرج لاحقة فقال الشيخ والفرج لاحقة، ثم اعلم أن النصارى دخلوها بعد وفاته بـ 72 سنة . (ص : 41) .

دعاء غريب ينسب إلى الإمام الهواري وما هو إلا أسطورة من الأساطير تظهر فيها الصنعة بوضوح وجلاء، والهدف منها هو تحقيق غرض واحد ألا وهو تبرير الاحتلال الاستعماري وتقديمه للناس على أنه بلاء من الله وعقوبة حلت بالمسلمين بسبب عصيانهم للأولياء، وما هي إلا أباطيل ودعاوى كاذبة لا أساس لها، لأن الأولياء والعلماء قد عرفوا بمواقفهم العدائية للحكام المسلمين أنفسهم وعدم التقرب منهم، فكيف بالإمام الهواري يسلم وهران التي قضى فيها نصف عمره داعيا ومعلما ومربيا لكفار ونصارى إسبانيا، بل أن هؤلاء الأولياء ورجال التصوف هم الذين تولوا أمر الدفاع عن الإسلام والثغور الإسلامية عندما تعرضت للاحتلال الأجنبي وعجزت السلطة السياسية عن أداء واجبها وانهمكت في مشاكلها الداخلية وحروبها الهامشية.

كما وردت بعض الكرامات والخوارق للإمام الهواري في كتاب البستان لابن مريم مبالغ فيها، ومن ذلك أن الشيخ سليمان بن عيسى كتب إلى الإمام الهواري كتابا فيه نحو 70 سطرا يشكو فيه أمورا ويسأل عن أخرى وبعثه مع رسول لـــه من قلعة هوارة و لما انطلق الرسول بدا لسليمان بن عيسى ان يلحق به خشية ان لا يضبط جواب الإمام الهواري فوصلا في نفس الوقت إلى الإمام الهواري الذي شرع في جواب ما في الكتاب سطرا سطرا على الترتيب حتى أتى على آخره وكل ما حدث به خاطرسليمان بن عيسى كل ذلك فعله الإمام

الهواري والكتاب مطروحا بين يديه دون أن يرفعه ولم يفك عنوانه ولم يفتحه ولم يسأل صاحبه عما فيه.

ويبدو من هذه الخارقة أنها تتعارض مع مقتضيات العقيدة، فكيف للإمام الهواري أن يعلم ما يجول بخاطر الناس ويعلم الأسرار وهي أمور منافية لحقيقة الدين، فمنطق الأشياء يقتضي أن الإمام الهواري فتح الكتاب وقرأ ما فيه وأجاب عليه سطرا سطرا.

ويبدو أن صاحب البستان قد أعجب ببعض العلماء ونظر إليهم نظرة القداسة لأنه لم يصل الى مستواهم العلمي فأكثر من وصف العلماء بالكرامات والخوارق والخلط بين العلماء والصلحاء، سيما وأن ناحية التصوف تمثل ابن مريم في كتاب البستان أكثر مما تمثله ناحية الفقه والعلوم العملية، فهو نفسه يعتقد في ولاية الأولياء وكراماتهم لذلك حشا كتابه بأخبار هذه الكرامات والخوارق . ولكن بالرغم من بعض الخوارق المنسوبة للإمام الهواري فإن حياته لم تخل من كرامات حقيقية بلغت التواتر المعنوي واشتهرت بين العام والخاص وقد أجمع كما يقول ابن مريم على تعظيمه وتسليم التقديم له في الولاية كل من عاصره من بلاد المغرب من الأولياء، ومن هؤلاء الشيخ الحسن ابركان الذي سافر من تلمسان حافيا راجلا الى أن بلغ الإمام الهواري تأدبا معه ويعتبر الحسن آبركان أحد الأربعة الذين خصهم ابن صعد التلمساني بكتاب سماه «روضة النسرين في ساقب الأربعة الصالحين» وهم الإمام الهواري وتلميذه إبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد بن الحسن المغراوي.

ومما يدل على مكانة الإمام الهواري أيضا مشاورة السلطان الزياني أحمد العاقل: (834 ـ 866هـ)، (1431 ـ 1462م) له، ذلك أن هذه السلطان كما يقول التنسي في «نظم الدر والعقيان» كانت له عناية عظيمة بالولي الزاهد القطب الغوث شيخ

الزهاد وقدوة العباد السيد ابو علي الحسن بن مخلوف فكان يكثر من زيارته ويقتبس من إشاراته ومدار أكثر أموره عليه، وبنى بزاويته المدرسة الجديدة وأوقف عليها أوقافا جليلة.

والحسن بن مخلوف هذا هو أبركان المذكور ضمن الأربعة الصالحين في روضة النسرين وهو الذي سافر حافيا إلى الإمام الهواري كما ذكرنا وكان يعتمد عليه السلطان الزياني في كثير من الأمور ومنها أن السلطان الحفصي أبا فارس المتوكل (796 هـ 838 هـ) تحرك لقتال الزيانيين بعدما رفضوا عهده سنة 837 هـ / 1433م فتوجه السلطان الزياني أحمد العاقل إلى الحسن أبركان يستشيره في أمور ثلاثة وهي :

1 ـ الذهاب لملاقاة السلطان الحفصي أو 2 ـ الصبر حتى يصل إلى تلمسان أو 3 ـ الذهاب إلى هنين ومنها إلى الأندلس فلم يجبه الحسن أبركان ونصحه بان يستشير في هذا الأمر الإمام الهواري وقد صادف ذلك وجود الشيخ بختي خادم الإمام الهواري بتلمسان فبعثوا معه الكتاب.

ولما وقع بين يديه قال لخادمه يا بختي لا حاجة لنا بصحبة السلطان وما الذي ساقنا إليه، وفي ذلك دليل على صدق الرجل في تصوفه وتدينه، فلو كان من صنف أشباه الصوفية لاهتبل هذه الفرصة ليتقرب من ذوي السلطان والجاه، ولكن عزوفه عنهم قد قوى مركزه ودعم مكانته بين أتباعه ومريديه . وكان جواب الإمام الهواري أن قال لخادمه قل له إن السلطان أبا فارس لا تراه ولا يراك أبدا . وتروي المصادر التاريخية أن السلطان الحفصي لما تحرك سنة 837 هـ لقتال السلطان الزياني أحمد العاقل احتل جبل وانشريس قهرا وانضم أهله إليه ثم ما كاد يتصل بتلمسان حتى وافاه أجله فتوفى بطريقه إليها وعاد أصحابه من حيث أتوا.

وهكذا فإن القرن 9 هـ وهو القرن الذي عاش فيه الإمام الهواري قد تزايد فيه

الاهتمام بالعلوم الدينية والتصوف وتناقصت العناية بالعلوم الدنيوية من اجتماعية وطبيعية أي أن القرن 9 هـ قد شهد في المغرب الأوسط وكذلك في الأقطار الإسلامية المجاورة خللا في التوازن بين العقلانية والروحانية حيث أصبحت هذه الاخيرة تسيطر على الفكر، وأخذ اهتمام الناس بالتاريخ والفلسفة والطب وغير ذلك يقل شيئا فشيئا ويقنع من يدرس هذه العلوم بالمختصرات والأراجيز ، وإذا كان هذا الاتجاه في بدايته في هذه الفترة فإن عهد الانحطاط والجمود تلا هذه المرحلة مباشرة .

ولا غرابة أن يعرف القرن 9 هـ نخبة صالحة من العلماء المشهورين غير أن العلوم التي نبغوا فيها ونبه فيها ذكرهم هي العلوم الدينية بصفة خاصة من تفسير وقراءات وحديث وفقه وكلام وتصوف ولم يجد مثلا علم التاريخ خلفا لابن خلدون في هذا العصر، ولا الفلسفة والطب خلفا لابن رشد يواصل المسيرة في هذه العلوم ويسمو الى مستوى أعلى.

تلك هي أهم ميزة للحياة الفكرية أثناء القرن 9 هـ ؛ وهي تعكس لا محالة الأوضاع السياسية التي كانت تحمل طابع الضعف والاضطرابات وعدم الاستقرار.

المراجع

- نيل الابتهاج : **أحمد بابا التنبكتي**
- البستان : **ابن مريم**
- تعريف الخلف : **الحفناوي**
- الضوء اللامع : **السخاوي**
- الأعــلام : **الزركلي**
- درة الحجال : **ابن القاضي**
- شجرة النور : **محمد مخلوف**
- دليل الحيران : **الزياني**